

## الاتجاه العرفاني في رواية لبيك حجّ الفقراء لمالك بن نبي -مقاربة نظرية مطبقة-

د. عيسى مومني

قسم الآداب واللغة العربية

كلية الآداب واللغات

جامعة الإخوة منتوري قسنطينة الجزائر.

### الملخص:

تستهدف مادة هذا البحث الميّن البارز من الأشياء؛ وهو نص اللغة الذي به نتعامل مع ظواهر الوجود بما يمثلها من متواليات من الجمل المترابطة، والتراكيب غير المعزولة. ثم يأتي ما وراء اللغة ليخرج الأشكال من سطحها المستوي إلى منوال الأفضية التي تجعل المفاهيم منتجة. وإذا كان الاتجاه العرفاني والإدراكي من الاتجاهات اللسانية التي ظهرت بعد رسوخ مستويات التحليل اللساني، فإن هذه المساهمة تضع الاتجاه العرفاني في رواية لبيك حجّ الفقراء لمالك بن نبي، والجوانب التركيبية، والدلالية، والتداولية موضع التطبيق. وهذه القضايا مجتمعة كفيلة بجعل هذه القراءة مهمة في هذه الرواية.

### الكلمات المفتاحية:

الاتجاه العرفاني - الدلالة - التداولية - رواية لبيك لمالك بن نبي

### Abstract :

This article aims to study the prominent text of things, which is the text of

مجلة الآداب، المجلد 18، العدد 1، ديسمبر، 2018

the language, which we deal with the phenomena of existence and what it represents series of interconnected sentences, and isolated structures.

Then beyond the language, which brings the forms out of its flat form into the space mode that makes the concepts productive.

If the perceptual and cognitive flow is one of the linguistic trends that emerged after the established levels of the linguistic analysis, then this contribution places the perceptual trend in a narration to pick up the poor pilgrimage of Malik bin Nabi, and the structural, semantic, and deliberative aspects applied.

These issues, together, are able to make this reading important in this novel.

### **Keywords:**

The perceptual trend – Semantics – Pragmatic – Lebbeik novel, Malik bin Nabi.

### **مقدمة**

إن المصطلح المقصود بالتعريف في هذه العجالة هو مصطلح العرفانيّة، وله اختلافات اصطلاحية بين الباحثين منها: الإدراكية، والعرفنة، والتعرف، والمعرفيّة. واستخدم الدارسون في المغرب العربي مصطلح العرفانيّة، ومال المشاركة إلى استخدام مصطلح الإدراكية. وهذا الاختلاف يكشف "عدم بلوغ التلقي العربي لهذا المنهج مرحلة الإبداع فيه وتأصيله"<sup>(1)</sup>. ممّا يؤشر أن أزمة المصطلح العربي عامّة واللّساني بوجه خاص ما زالت قائمة<sup>(2)</sup>. وهو ما يُلمح من عنوان كتاب "علم اللغة مقدّمة للقارئ العربي" لمحمود

الاتجاه العرفاني في رواية لبيك حجّ الفقراء لمالك بن نبي - مقارنة نظرية مطبقة..... عيسى مومني

السّعران، فهو يشير إلى نقص الحوار بين المثقفين، لهذا ذهب للحديث مباشرة مع القارئ دلالة على ضيق مساحة الحوار بين الدارسين في الجامعة الواحدة أو المعهد الواحد.

**أولا . مساحة الإدراك لدى المتلقي في رواية لبيك حجّ الفقراء لمالك بن نبي:**

جاء في المعجم الوجيز: عَرَفَ يَعْرِفُ عِرْفَانًا وَمَعْرِفَةً الشَّيْءَ: أدركه بحاسّة من حواسّه، فهو عارفٌ، وعَرُوفٌ. وأدْرَكَ: يدرك إدْرَاكًا الثَّمْرُ: نَضَجَ. و. الشَّيْءَ: لَحِقَهُ وبلَّغَهُ ونالَهُ. و. المعنى بعَقْلِهِ: فَهَمَهُ<sup>(3)</sup>.

وهكذا جاء التعريف اللغوي في رواية لبيك حجّ الفقراء لمالك بن نبي<sup>(4)</sup> متعلّقاً بالإدراك، والفهم، ومشحوناً بكثرة المعارف وتعدّدها. فأين تظهر عمليات العرّفنة وأبنيته في هذه الرواية؟ وما القضايا التي تنطوي عليها مساحات الرواية التي تتوزّع بين اللغوي، والمعرفي، والدلالي؟. وهل يمكن أن نعد أن الحديث في رواية "لبيك حجّ الفقراء" لمالك بن نبي هو بحث في العلاقة بين الثقافة والذهن؟. وهل مدّ الخطاب في رواية "لبيك حجّ الفقراء" مساحة الإدراك لدى المتلقي، وعمل على إخراج مكونات الإنسان في كل عصر، وأدى هدفه في ربط الحاضر بالماضي وربط الحاضر بالمستقبل في استمرارية دائمة؟. وهل جسّدت هذه الرواية عمق الروح الجزائرية المنتمية إلى تراث الثقافة والحضارة الإسلامية وحققت هدفها النهائي الإنساني والعالمية من خلال محاورة الآخر، وأبانت عن مشروع ثقافي وحضاري مخصوص، أم هو عمل فني انتفى فيه هذا الجانب القصدي؟.

وهو ما نعرض له من خلال نماذج تطبيقية تشرح صورة التّعدّد الثقافي، والاجتماعي، والانتروبولوجي، والنفسي في رواية لبيك، والبيئات المادية والاجتماعيّة التي عبرت عنها الرواية، وطريقة استعمال مالك بن نبي للغة الحديث عن الأشياء كما هي في حال الكون والتّجربة، والتناسب بين المفاهيم والمدركات.

**1. حالة الأمة الجزائرية في إحساسها بالنداء الحقيقي للحج:**

يكشف عنوان الرواية المقصودة بالدراسة عن طريقة في العرض تتسم بالوضوح الذي يحيل القارئ مباشرة على حالة الأمة الجزائرية في إحساسها بالنداء الحقيقي للحجّ، دلالة على الاستجابة والطاعة، يقال: "لَبِّي بالحجّ: قال لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ"<sup>(5)</sup>. وتبرز قوّة النجاعة في العنوان من خلال بناء المفاهيم عند مالك بن نبي التي يُتوصّل بها إلى تحصيل الزيادة في المعرفة. ومن ثم جاءت فلسفة مالك بن نبي منصّبة على التّظر في الكليّات المجرّدة، والتّدرج في مراتبها إلى فضاء العقل الفسيح.

فكان العنوان منطلقا للقراءة بالنظر للوظائف التي يؤديها، والتي يحدّدها "جيرارد جنيت" في أربع وظائف هي: الإغراء، الإيحاء، الوصف، التعيين"<sup>(6)</sup>. وهو ما اتّسع له من نداء لا يقاوم؛ يمثل نموذج الفكرة، وصفاء شبكة العلاقات الإنسانية في عفويتها وقدرتها على اتّخاذ القرار.

## 2. الأفق المكاني والزمني في رواية لبيك:

ينضوي نص اللغة في رواية "لبيك حجّ الفقراء" تحت جملة المعاليم التي تكشف عن حديث الفطرة السليمة للشعب الجزائري في تعامله مع "النداء الذي لا يقاوم كي يُلبّي بقوّة لا تقهر؛ إنّ في الشتاء وإنّ في الصيف"<sup>(7)</sup> لأداء هذه الفريضة.

وهو مشهد يكشف عمّا تكنه النفس المؤمنة من حنين إلى أداء فريضة الحجّ في المجتمع الجزائري في فترة ظن فيها المستعمر الفرنسي أنه قد أجهز على كل شيء.

أ. الأفق المكاني: مدينة عنابة، بونة سابقا: "وفي هذا اليوم كانت عنابة تحتفل بالحجيج، وكانت الحركة غير عادية قرب محطة القطار، وعند المرفأ منذ اقتراب الباخرة"<sup>(8)</sup>.

ب. الأفق الزمني: عيّنة من عيّنات ذلك المشهد الجزائري الذي افتقد في زمن الصّحْب سبل الفاعلية في المبادرة بسبب ظروف الاحتلال، وبدأت معالم فكر حضارة الإنسان

الاتجاه العرفاني في رواية لبيك حجّ الفقراء لمالك بن نبي - مقارنة نظرية مطبقة..... عيسى مومني  
الجزائري حينها تفقد فعاليتها أمام وهج الحضارة الغربية وهي في أقصى حالات التأهب  
للسيطرة على العالم.

إنه مشهد لوضع كان يعيشه الإنسان الجزائري، في ظل الاحتلال؛ إحياء لقيم الفطرة  
التي تكاد مؤثرات النمط الأوربي تطغى عليه في تلك الفترة "فيستجيب الذين هم في  
أقاصي البلاد المسلمة؛ لبيك لبيك"<sup>(9)</sup>.

### 3. المجاهيل التي تؤثت أقوال أبطال رواية لبيك حجّ الفقراء:

وتظهر فيما وراء اللغة من إيجاءات تؤثت أقوال: العم محمد، والطفل "هادي"، والسكير  
"إبراهيم" وزوجته "زهرة"، والمثقف الجزائري ذلك الجندي المجهول المدافع عن قيم الأمة .  
وقد تتناهى أقوال هذه الشخصيات في الدقة فُتْحَى على غير المتمرس بأسرار اللغة؛  
يلمح القارئ في شخص "العم محمد" الأصالة المتجدرة في الأمة والتي أبت التأقلم مع  
الوضع الذي اعتراه التحول.

وفي شخص "إبراهيم" صورة للجيل الذي عايش المجتمع الأوربي في الجزائر فغلب عليه  
الانحراف وبقي في حيرة من أمره. وفي لحظة من لحظات التأمل حركه نداء الفطرة فقرر أن  
يؤدي فريضة الحج، وسارع لعمّه "محمد" ليخبره بذلك، ويقطع صلته بماضيه البئيس،  
ويكشف عن الروح الناصعة التي تسكن ذلك الجسد الذي أرهقته الحياة الشاقة التي يعيشها  
الإنسان الجزائري آنذاك..

وتظهر شخصية المثقف الجزائري في رواية "لبيك" في المناقشة التي جرت بين ذلك  
الرجل المثقف والربان في تلك السفرية، وقد مثل فيها مركز الثقل الذي تطبع عليه الأحداث  
كل أبعادها العالمية.

كما يلمح القارئ أيضا أن مالك بن نبي قد خصّ الفتى "هادي" بالتفاته في رواية  
"لبيك حجّ الفقراء" لما أبرزه من تحدي لرفاقه وصعوده إلى المركب ليحجّ هو الآخر من غير  
وثائق تثبت هويته، ودون أن يُعَدّ للأمر عدّته.

ولم ينس دور المرأة في المجتمع في إشارة لزهرة زوجة إبراهيم "على ما عانته من انحرافه وعريده".

فكل أبعاد هذه الأقوال هي منظومة ما وراء اللغة، حاول فيه مالك بن نبي إعادة الوصل مع الذاكرة، والتاريخ، والموروث الثقافي، والأدبي والفكري، أعد له أشخاصه ومصطلحاته وأماكنه "بعبارة بسيطة تكشف عما تكته النفس المؤمنة من حنين إلى واد بعيد، حيث ترك إبراهيم ذريته لكي يعبدوا الله"<sup>(10)</sup>. وعما تشعر به من لحظات من الإيمان الرحب الذي يجمع ولا يفرق، ويترك الناس لأجله كل شؤون الدنيا للالتحاق بتلك الرحلة المباركة.

#### 4. المشروع الذي أبانت عنه رواية "لبيك حجّ الفقراء":

ومن ثم أبانت رواية "لبيك حجّ الفقراء" لمالك بن نبي عن مشروع رواية بالفرنسية عام 1947 م والتي قيل عنها تواردا "إنّها إحدى إبداعات بن نبي في الأدب الفرنسي"<sup>(11)</sup>. وهي نموذج لرؤية الفرد المسلم في مساحة الإنسانية؛ وهو يرسم الطريق ويحدّد الاتجاه.

#### ثانيا. مفردات التحليل التداولي في رواية "لبيك حجّ الفقراء":

لقد جاءت الرواية غنية بمفردات التحليل التداولي، وجاء فهم الملفوظ فيها يستلزم بالضرورة معرفة المتقبل بمقصد الباحث التواصلي، وهو ما تظهره مؤشرات التداول، وحديث التعدّد الثقافي والاجتماعي والنفسي، ومظهر استعمال اللغة في التواصل.

#### 1. سلطة الادمج بين الثقافي والاجتماعي والنفسي في رواية "لبيك حجّ الفقراء":

إن حديث مالك بن نبي عن الفرق الدينية التي أبانت عنها هذه الرحلة، وتشكلاتها في تلك الرحلة حسب انتمائهم، في قوله: "عادة، تتشكل الجماعات حسب انتمائهم إلى مختلف الفرق الدينية: (التيحانية) و(الأحباب) بعضهم مع بعض و(القادرية) و(الإخوان) بعضهم مع بعضهم، كلهم يجتمعون من أجل الذكر الخاصّ بكل فرقة"<sup>(12)</sup>. يكشف عن

الاتجاه العرفاني في رواية لبيك حجّ الفقراء لمالك بن نبي - مقارنة نظرية مطبقة..... عيسى مومني

تمييزه بين مستويات الدلالة في إشارة إلى صورة من صور حُجُب الاستعمال التداولي لذلك نجدّه يستحضر مثل هذه القراءة بوصفها دوافع قوية لفهم واقعه وتعويضه بمبررات جديدة. وإذا كانت دلالة الملفوظ تستلزم بالضرورة مقصداً توأصلياً فإن حدود التلاقي والابتعاد يَشِي بمدى وعي "مالك بن نبي" بخبايا الدلالة في مؤشرات التداول فهو أشبه بمن "يضع مقترحه على تخوم علم الاجتماع، وفقه اللغة، واللسانيات، والأدب"<sup>(13)</sup> في معرفته بثقافة الأمة، والأفكار التي تتداولها الجماعات هنا وهناك.

كما يظهر من تلك المستويات الدلالية التداولية؛ دلالة العبارة في مقابل دلالة الإشارة في قوله "حيث ترك إبراهيم ذريته لكي يعبدوا الله"<sup>(14)</sup> دلالة على أن شعيرة الحج تقام حيث ترك سيدنا إبراهيم ابنه إسماعيل مع أمّه هاجر. أما "مسبحة أم إبراهيم" في الرواية فهي تمثّل الرصيد الثقافي المتوارث عبر الأجيال. وهكذا "تكون الأعراف علامات دالة بين الأفراد بحيث لا تبرز الأمانة إلا إذا انبثق المدلول الذي هي دالة عليه"<sup>(15)</sup>.

ومن النماذج التي قامت فيه الدلالة العرفية مقام الوضعية، واتحدت في إدراكه كل أفهام الحجاج في تلك السفينة؛ حديث إبراهيم الذي "أخذ يفكر في كيفية لباسه لو استقرّ في المدينة المنورة، تساءل إن كان سيواصل ارتداء "القندورة" الجزائرية والعمامة أو يستبدلها بالزي الحجازي. كان لديه ميل إلى هذا الأخير، كانت تعجبه أبهة العباءة والعقال الحجازيين، فقد رأى مطوفا يرتديهما حلّ ضيفاً على أبيه"<sup>(16)</sup>. فعلاقة إبراهيم بظاهرة لباسه، هي دلالة انبثقت "على تراكب بين النمط الطبيعي والنمط العرفي وأصله أن الإنسان مجبول بفطرته على مشاعر إذا تعهدّها العرف الاجتماعي آلت معه إلى منازل وجدانية أو سلوكية تتظافر فيها دلالة الطبع مع دلالة الاصطلاح"<sup>(17)</sup>.

ومن ثم فإن الجانب الثقافي والاجتماعي والنفسي في رواية "لبيك حجّ الفقراء" يجعلها تتموقع في حقل التعدّد وهو مظهر من مظاهر التداولية في ممارستها لسلطة إدماجه بين

الاتجاه العرفاني في رواية لبيك حجّ الفقراء لمالك بن نبي - مقارنة نظرية مطبقة..... عيسى مومني

تلك القضايا كلّها. فكان الحوار له لغته وفلسفته للتواصل مع الآخر. وهو نموذج لرؤية الآخر في فكر مالك بن نبي.

كل هذه الأمثلة هي نماذج لاستعمال اللغة في التواصل، وفي الصلات القائمة بين الخطاب والمنطق من جهة وآثار الخطاب في السامع. وهو ما توخاه مالك بن نبي في حوار شخصياته، وفي اصطلاحاته الفلسفية ومفرداتها التي يستخدمها، وكلها تكشف عن تداولية الاستعمال في رواية "لبيك حجّ الفقراء".

## 2. مظهر استعمال اللغة في التواصل في رواية "لبيك حجّ الفقراء":

لقد جاء العنصر المحال إليه بكونه حاضرا في الخطاب بالقوة؛ فالحج وما يتبعه من استحضار نيّة، وأقوال وأفعال ولباس خاص، كل هذه القضايا حاضرة في حقل لغة "مالك بن نبي" تلخصه حوارات كثيرة دارت بين العم محمد، وإبراهيم الذي جاء يطلبه في ساعة مبكرة من ذلك اليوم ليخبره بأمر عزمه على الذهاب مع الحجّاج "الذين سيغادرون اليوم قبل الظهر"<sup>(18)</sup>. وهي عبارات تكشف مدى عناية مالك بن نبي بتقليب أساليب الخطاب في رواية "لبيك حجّ الفقراء" وصلتها بمقاصد الخطاب والمتخاطبين.

ومهما تعدّدت تعريفات التداولية، فإن الجانب التداولي في رواية "لبيك حجّ الفقراء" لمالك بن نبي، في دراسته للغة بوصفها ظاهرة خطابية وتواصلية واجتماعية قد وقر كل شروط التواصل في الحوار الذي دار بين أشخاص رواية "لبيك حجّ الفقراء" لاعتماد مالك بن نبي على حقل اللغة المناسب لكل مقام، ويظهر في حديث إبراهيم مع الحجّاج، وحديثه مع الفتى "هادي"، وفي معاملته لزوجته "زهرة"، وفي حديثه بعد توبته وعزمه على أداء فريضة الحج، وفي الحوار الذي جرى بين ربّان السفينة والبحار، عن الشاب "هادي" الذي لم يستوف جميع إجراءات الحجّ فقال أحدهم "إن من القسوة ضدّ هذا الرجل المسكين لأنه لم يستوف جميع إجراءات الحجّ. فكانت إجابة الضابط نابعة من فلسفته ومناسبة لطريقة تفكيره: "أجل إنه أمر قاس ولكن هذا هو الصراع الأزلي بين ما هو دنيوي وما هو روعي .



الاتجاه العرفاني في رواية لبيك حجّ الفقراء لمالك بن نبي - مقارنة نظرية مطبقة..... عيسى مومني

يقولون إن "تولستوي" عرف أكبر أزماته الأخلاقية عند رؤية شرطي يهين أحد الشحاذين في موسكو بحجة أن الشحاذة كانت ممنوعة<sup>(19)</sup>.

ويظهر استعمال اللغة في التواصل في تدخّل ذلك المثقف الجزائري في الحوار الذي دار بين الرّبان ومجموع الحجّيج، والقصد الذي ذهب إليه كلّ فريق، والفهم اللغوي لكلمتي "الله" و "الربّ" عند جموع الحجّاج، والبحار، والمثقف الجزائري في تلك السفريّة.

### 3. العلاقة بين الثقافة والذهن في رواية لبيك حجّ الفقراء :

يظهر الحديث في رواية "لبيك حجّ الفقراء" وكأنّه "بحث في العلاقة بين الثقافة والذهن، وهي بحث في ما به يدرك الإنسان الأشياء والأحداث والتجارب في محيطه فيتمثلها"<sup>(20)</sup>. فمشهد تفحص الحجّاج للطعام والحكم الذي أصدره الإمام الذي يؤم الحجّاج في السفينة، بعد أن أخذ ملعقته وتناول بها كل قطع اللحم، وقال: ليس هذا لحم خنزير، وكرّر إبراهيم الكلام نفسه قائلاً: أنا متأكد من أن اللحم ليس لحم خنزير، فقد رأيتهم يذبحون خرافاً وفقاً للشريعة"<sup>(21)</sup>. يجعل من الأحداث والتجارب في رواية "لبيك حجّ الفقراء" نظاماً ذا معنى، يدرك فيه الإنسان المواقف الجديدة ويمكن تحديدها ومعرفتها والتحكّم في مسارها.

أما طريقة عرض مالك بن نبي للحوار الذي دار بين البحار ومجموعة "إبراهيم" حول عدم أكل لحم الخنزير عند المسلمين، فهو يكشف عن وجود اختلافات ثقافية في الإدراك والاستدلال وتصنيف المأمورات بين البشر. ومثل هذه القضايا تؤوّل إلى أن اختلاف البشر "في تصنيف الأشياء باختلاف الثقافة وليس هذا الاختلاف نفسياً أو عصبياً وإنما هو اختلاف ثقافيّ بين تموضع العرفنة تموضعا اجتماعياً"<sup>(22)</sup>. وهو اختلاف بين فهم ذلك البحار الغربي الذي يظن أن النبي محمد "صلى الله عليه وسلّم" هو من منع الخمر والخنزير. وعلى الرغم من حداثة إبراهيم مع التوبة وعزمه على أداء فريضة الحج، فهو يعتقد أنه ليس محمد من منع الخمر والخنزير بل إنّ الله هو الذي قد حرّمها على المسلمين"<sup>(23)</sup>.

الاتجاه العرفاني في رواية لبيك حجّ الفقراء لمالك بن نبي - مقارنة نظرية مطبقة..... عيسى مومني

وهكذا ترتقي درجات الفهم ومدى إدراكها عبر الثقافات بعد تدخل "أحد المثقفين الجزائريين والذين يجيدون لغتين على الأقل فيحاطب الناس بما تفهم. "ليس محمد ولا الله .. لكن الربُّ هو الذي قرّر المنع. ارتبك البحار لهذا التدخل غير المتوقع وسأله بشيء من الجدية: إذن فبالنسبة إليكم الله والربّ ليس لهما المعنى نفسه؟". يجيبه قائلاً "بالنسبة إليّ نعم. ولكن بالنسبة إليكم فالأمر ليس كذلك، عندما تقولون "الله" يذهب بكم تفكيركم إلى صنم يعبده المسلمون. لكن حين تقولون الربّ فسيتبادر إلى أذهانكم الشيء نفسه عندما نقول نحن "الله" (24).

لقد أبرزت رواية "لبيك حجّ الفقراء" بيئات مادية واجتماعية مخصوصة عبرت عنها الرواية على لسان إبراهيم في قوله: "كان لدى إبراهيم هذا الإحساس بالخزي الذي ينزل بهذه الشريحة المشبوهة من الناس الذين طبعتهم الحياة التي أخذت منعطفاً عصرياً والذين هم متشردون دون مأوى ولا عائلة على هامش مجتمعين: مجتمع مسلم وآخر أوربي" (25). وكل ذلك يدخل في الجانب الأنثروبولوجي العرفي.

#### أ. عمليات العرفنة وأبنتها في رواية لبيك:

إن عمليات العرفنة وأبنتها في رواية "لبيك حجّ الفقراء" تظهر من قبيل الحوار بين شخصيات الرواية ولغتها، والقصد الذي ذهب إليه كل فريق، والفهم اللغوي لكلمتي "الله" و"الربّ" عند جموع الحجاج، والبحار، والمثقف الجزائري في تلك السفيرة، والإدراك والانتباه والذاكرة لدى "إبراهيم" مع صوت مؤذن الفجر الداعي إلى الصلاة: الله أكبر. الله أكبر. سمعه كمن أيقظه بعد نوم عميق ليناديه إلى الصلاة. كان يحسّ وكأنّ الأذان قد أيقظه من سبات دام لسنوات طوال. هذا الصوت أيقظ فيه أيضاً أصداً بعيدة، فتذكر أنّّه في مثل هذا الوقت كان ينهض والده لكي يتوضأ ويصلي" (26).

وإلى غير ذلك من عبارات اللغة التي سمعها إبراهيم، مثل عبارة "حيّ على الصلاة". والتي قال عنها الراوي "هذه العبارة التي لحّصت حالته النفسية في هذه الدقيقة تناهت إليه

الاتجاه العرفاني في رواية لبيك حجّ الفقراء لمالك بن نبي - مقارنة نظرية مطبقة..... عيسى مومني

مثل صدى حوار داخلي كان قد أفلت من شعوره. وتنبّه أنه ومنذ زمن بعيد لم يشهد طلوع الفجر، ولم يستنشق النسيم العليل للصباح<sup>(27)</sup>.

وهي قضايا تصلح أن تكون "مباحث تهمّ الانفعال والشخصية وغيرها ممّا له تفاعل مع سائر الملكات العرفيّة"<sup>(28)</sup>. مما يدخلها في ما يسمى بعلم النفس العرفيّ الذي يشتغل على مثل هذه المسائل.

#### 4 . انسجام هوية النص ووحده في رواية "لبيك حجّ الفقراء":

إن الخطاب الذي تصدى له مالك بن نبي في رواية "لبيك حجّ الفقراء" لا يختص بفئة محدّدة من الناس أو بفترة مخصوصة، وإنما هو خطاب للحقيقة التي تتمظهر وفق خصوصيات ثقافية، واجتماعية مختلفة. وما دام أن كل شيء عند الإنسان هو تواصل، فإن التواصل في هذا الخطاب هو تواصل البشر مع تعاليمهم السماوية، ومنها شعيرة الحج، وقد عمل فيها الخطاب على إخراج مكونات الإنسان في كل عصر من خلال السفر مع النص إلى أبعد حدوده الممكنة. وهو ما يبرزه التناسب بين المفاهيم والمدرّكات وأخذ الواقع الاجتماعي في الاستعمال في الرواية.

#### 1 . التناسب بين المفاهيم والمدرّكات في رواية "لبيك حجّ الفقراء":

لقد جاء مدّ الوصل في رواية "لبيك حجّ الفقراء" بين المفاهيم والمدرّكات مدّا استعاريا انطلاقا مما هو مادّي نحو ما هو غير مادّي. فعبارة "غسل عظامهن"<sup>(29)</sup>. دلت على أن الحج مطهّر للذنوب. ومكمن الاستعارة في التناسب بين التطهر من الذنوب وغسل الجسم من الأدران. فكانت رواية "لبيك حجّ الفقراء" هي زاد المسافر إلى الله، و نسق من المعرفة المعمّمة للظواهر التي عاجلها مالك بن نبي بفضل بعده الاستشراقي ومشروعه الثقافي الحضاري المخصوص، والتي يظهر من خلالها أنه صاحب قضية يدافع عنها.

الاتجاه العرفاني في رواية لبيك حجّ الفقراء لمالك بن نبي - مقارنة نظرية مطبقة..... عيسى مومني

وهكذا صار الخطاب عند مالك بن نبي أشبه بفضاء ذهني علاقة اللغة فيه بالعرفنة أوسع. فحاء "موقع الاستعارة ليس في اللغة على الاطلاق، وإنما في الكيفية التي تُفهم بها مجالاً ذهنيًا وفقا لمجال آخر"<sup>(30)</sup>.

والنماذج كثيرة في رواية لبيك حجّ الفقراء، ففي قوله "ظل فكره يطارده بلذّة ذلك الحلم الذي يعتقد أنّه رآه"<sup>(31)</sup>، وقوله "في واحد من الأزقة تراءى طيف شخصين"<sup>(32)</sup>، وقوله: "استخار فيه الله ليلهمه عن طريق رؤيا في الحلم"<sup>(33)</sup>. وهي نماذج "متجدّرة في التجربة الحسيّة والاجتماعية والثقافية"<sup>(34)</sup>. تمثل نماذج مفهومية ليست لغوية، جعلت المعرفة رؤية، والزمن حركة، في مثل قوله: "ففي عائلة ما، حيث يكون الأب قد أدّى فريضة الحجّ بالأرض المقدّسة في فصل الصّيف بإمكان الابن أن يؤدّيها في عزّ الشتاء"<sup>(35)</sup>، والعجرفة موبقة، في مثل قوله "هذه العجرفة التي يشترك فيها كل الذين يتعاطون الخمر، أهمته فرحة مفاجئة فأنشد يغني بمقاطع غير مفهومة من اللغة وعلى إيقاع كل المخمورين"<sup>(36)</sup>، والصوت قوّة خارقة، في مثل قوله "لقد فاجأه صوته الشاذ الذي اخترق المحلّ، لكن روحه واصلت ملاحقة حلمه الذي أقحم فيه كلّ ما يعرفه من مفاهيم عن الحجّ"<sup>(37)</sup>،

والذاكرة ملجأ، في مثل قوله: "لقد حاول سدى الاستنجاد بذاكرته التي أنهكها الخمر، رغم ذلك توافدت أفكار طفّت إثرها حوادث ليلة البارحة"<sup>(38)</sup>، وقد تكون الذاكرة عنده أيضا رصيذا ينقص ويزيد، في مثل قوله: "انقطع مشهد الذكريات من ذهنه وكأنّ ستاراً حاجباً سقط فغطّى ذلك المشهد، وعاد إلى ذاكرته ذلك الحلم الذي حاول إبراهيم استشعاره"<sup>(39)</sup>. وقوله: "هكذا أرخى إبراهيم العنان لذاكرته"<sup>(40)</sup>. وكل هذه الأمثلة هي نماذج لاستعارات مفهومية وردت في رواية لبيك بكثرة. كما نجد يركّز على عمليات العرفنة من إدراك، وانتباه، وتدكّر، وقصد، واستعمال لغوي. مما يؤكد أن مالك بن نبي شهد ما يسمى بالثورة العرفنيّة في أوروبا في منتصف 1950م وهي ثورة على السلوكية وما سطرته من الاكتفاء بالسلوك الظاهر موضوعا للوصف والملاحظة.

مجلة الآداب، المجلد 18، العدد 1، ديسمبر، 2018

## 2. الواقع الاجتماعي في رواية "لبيك حجّ الفقراء":

لقد مثلت رواية "لبيك حجّ الفقراء" نداء الحجّ بما يحمله من تعظيم لشعيرة من شعائر الله، وبذلك وسّعت من مساحة الإدراك لدى المتلقي وكشفت عن صفاء شبكة العلاقات الإنسانية في عفويتها وسماحة روح الفرد الجزائري، وانعكاسه الاجتماعي والنفسي في نموذج "إبراهيم" الذي عاد إلى رشده، وصبر "زهرة" التي عانت الكثير من عريده، وطموح "هادي" الذي ركب مع الحجّاج من غير وثائق، وثبات "العم محمد" على الحق، وتعاون كل جيران إبراهيم، وأصدقائه، وموظفي إدارة البلدية على تسهيل رحلة "إبراهيم" إلى الحجّ.

وأخذ الواقع الاجتماعي للاستعمالات مبدأ لساني صميم وهو ما عني به مالك بن نبي من خلال استنباط الفوائد، وربطها بالظروف والملابسات لتكون سببا في النهوض بالأمة. فكان للتألف الحاصل بين العقل ونص الرواية أثره في وضوح المضمون واتساق المنهج، وهو ما مكّنه من تجاوز الخطاب المعرفي السائد وربطه بالواقع العلمي والعملي للنهوض بالأمة.

وقد ساعد على نجاح هذا الواقع في رواية "لبيك حجّ الفقراء" تميّز مالك بن نبي بمعرفة ذائقة تعمل على تلخيص الروحانية من شوائب الأرض، وترقق القلوب وترفع المستوى، وتترك الأثر الحسن. وهو واقع اجتماعي رصده مالك بن نبي في روايته "لبيك حجّ الفقراء" يظهر فيه الواقع واضحا للعيان حتى لدى الصبيان "فينعتون المجنون بالمجنون، والسكير بالسكير، فهم القضاة المدافعون عن المصالح والأعراف والتقاليد"<sup>(41)</sup>. كما يظهر في الإحساس المتناقض الذي أيقظته بعض الكلمات في نفسية إبراهيم، كلمة "بوقرعة" إشارة إلى تعاطيه الخمر في ماضيه "ليخطر بباله موضوع مثير للسخرية"<sup>(42)</sup>، وكلمة "الحاج" دلالة على التحوّل الذي صار إليه، وواقع المرأة المزري الذي صارت تقرأ فيه حظّها عند العرافة. ويقابل كل هذا الواقع الذي اعتراه التحوّل، كوامن الخير التي لازالت في نفس الجزائري،

الاتجاه العرفاني في رواية لبيك حجّ الفقراء لمالك بن نبي - مقارنة نظرية مطبقة..... عيسى مومني

وهي التي يراهن عليها مالك بن نبي للنهوض بالأمة في شخص "إبراهيم"، حيث يقول عنه: اشترى فطيرتين، فأكل واحدة وأعطى الثانية إلى شحاذ. لم يشأ الذهاب قبل أن يعرج على صاحبه. كان يريد أن يرى دهشته ولا سيّما عندما يُعلمه بالحدث العظيم، وبالمحل الذي سيتركه له "(43).

كل ذلك تأكيد على أخذه للواقع الاجتماعي في الاستعمال ومعرفته بثقافة مجتمعه، والتي تظهر أيضا في الطرافة والنكت التي وردت في الرواية، وكذلك في رفض مالك بن نبي لتأويل ما هو من أصل الشرع، ولكل ما هو ظاهر بنفسه للجميع، في مثل الحلم الذي قال عنه "حاول إبراهيم استشعاره وكان يريد أن يجد تفسيراً لهذا الحلم فلا يوجد مسلم لا يؤمن بتأويل عملي لرؤاه. بل إنه يوجد علم تفسير الأحلام الذي تجلت فيه على مرّ العصور فطنة بعض علماء تأويل الأحلام"(44).

وبذلك كشفت رواية "لبيك حجّ الفقراء" أن التغيير في محيط الإنسان يجب أن يتحقق أولاً في النفس وهو ما مثلته شخصية "إبراهيم" في الرواية. وأن الزهد في عالم النفوس بما يتصل بالآخرين يعيق القدرة على تعميم فضل الله إلى البشر، وإعادة بناء الأرواح البشرية المحطمة.

#### الخاتمة:

. تأسس هذا البحث على خطوات كان " نص رواية "لبيك حجّ الفقراء" لمالك بن نبي في صيغته المترجمة إلى العربية هو حافظ المعرفة ومبلّغها كما أراد مالك بن نبي. ومن ثم قامت الرؤية الدلالية في هذه الدراسة على الأوائل الدلالية المقصود بها وحدات اللغة، وجاء البعد التداولي ليفتش عن المعنى من ناحية السياق والاستعمال ومقاصد المتخاطبين في فضاء تواصلية يسمح بالأعمال القولية المتنوعة بمنظور وصفي تفسيري شمولي.

الاتجاه العرفاني في رواية لبيك حجّ الفقراء لمالك بن نبي - مقارنة نظرية مطبقة..... عيسى مومني

. وقرّ مالك بن نبي لنصّه كل شروط التواصل، وكل الاصطلاحات الفلسفية ومفرداتها في الحوار الذي دار بين شخصيات الرواية، كما أخذ الواقع الاجتماعي في الاستعمال. فكان العمل القوي الذي يصهر البنية والدلالة هو إنتاج ملفوظ يتوفر على دلالة، فضلا على انسجام هوية النص ووحده وغناه بمفردات التحليل التداولي، وتلك أبرز عناصر التعالي النصّي في رواية "لبيك حجّ الفقراء".

. حقّق البحث في رواية "لبيك حجّ الفقراء" حديث التعدّد الثقافي، والاجتماعي، والنفسي، والانتروبولوجي في الرواية كمظهر من مظاهر الاتجاه العرفاني، كما أبان عن روح القصّ الذي احتفى به في كتابه "مذكرات شاهد للقرن" ولذلك قيل: لو لم يكن مالك بن نبي صاحب قضية يدافع عنها لكان كاتب قصة كما ذكر في بعض أحاديثه.

#### الهوامش والإحالات:

(1). صابر الحياشة وآخرون، دراسات في اللسانيات العرفانية؛ الذهن واللغة والواقع، المملكة العربية السعودية، الرياض، الطبعة الأولى 1441 هـ / 2009 م، ص: 7.

(2). مصطفى غلفان، اللسانيات العربية وأسئلة المنهج، دار "ورد" الأردنية، الطبعة الأولى 2013، ص: 41 .

(3). المعجم الوجيز، مجمع اللغة العربية . القاهرة، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، 1992، مادة : عرف، ص: 415، ومادة: أذرك، ص: 226.

(4). مفكر جزائري ( 1905 م . 1973 م ) تميّز بثقافة منهجية، وترك مؤلفات عديدة تناولت: مشكلات التخلف، والسّنن والقوانين التي تحوّل الشعوب من الكسل والعجز إلى القدرة والفعالية، والقابلية للاستعمار، ومشكلة التكديس والبناء، والحق والواجب، وعالم الأشياء والأفكار.

(5). المعجم الوجيز، 1992، مجمع اللغة العربية . القاهرة، مادة: لئّي، ص: 551.

(6). حافظ إسماعيلي علوي، اللسانيات في الثقافة العربية المعاصرة، دار الكتاب الجديد المتحدة، الطبعة الأولى 2009، ص: 105.

(7). مالك بن نبي، لبيك حجّ الفقراء، ترجمة زيدان خوليف، دار الفكر، دمشق، الطبعة الأولى 1430 هـ / 2009 م، ص: 30.

(8). نفسه، ص: 30.

(9). نفسه، ص: 27.

(10). نفسه، ص: 30.

مجلة الآداب، المجلد 18، العدد 1، ديسمبر، 2018

الاتجاه العرفاني في رواية لبيك حجّ الفقراء لمالك بن نبي - مقارنة نظرية مطبقة..... عيسى مومني

- (11). مالك بن نبي، لبيك حجّ الفقراء، التصدير، ص: 10، وقد اعتمدنا في هذه القراءة ترجمة "زيدان خوليف" الذي قام بترجمة هذه الرواية إلى العربية سنة 2009 في إطار بحثه الجاد عن المصادر في كل ما يتصل بموضوعه حول حياة مالك بن نبي وفكره.
- (12). مالك بن نبي، لبيك حجّ الفقراء، ص: 82 .
- (13). صابر الحباشة، لسانيات الخطاب، الأسلوبية والتلفظ والتداولية، دار الحوار، سورية، الطبعة الأولى 2010، ص: 11.
- (14). مالك بن نبي، لبيك حجّ الفقراء، ص: 30.
- (15). عبد السلام المسدي، اللسانيات وأسسها المعرفية، الدار التونسية للنشر/ المؤسسة الوطنية للكتاب . الجزائر، 1986، ص: 54.
- (16). مالك بن نبي، لبيك حجّ الفقراء، ص: 92.
- (17). عبد السلام المسدي، اللسانيات وأسسها المعرفية، ص: 56.
- (18). مالك بن نبي، لبيك حجّ الفقراء، ص: 57، 58.
- (19). نفسه، ص: 90.
- (20). الأزهر الزناد، نظريات لسانية عرفنية، الدار العربية ناشرون، دار محمد علي للنشر، منشورات الاختلاف، د.ت، ص: 21.
- (21). مالك بن نبي، لبيك حجّ الفقراء، ص: 102.
- (22). الأزهر الزناد، نظريات لسانية عرفنية، ص: 21.
- (23). مالك بن نبي، لبيك حجّ الفقراء، ص: 105.
- (24). نفسه، ص: 106.
- (25). نفسه، ص: 45.
- (26). نفسه، ص: 51.
- (27). نفسه، ص: 52.
- (28). الأزهر الزناد، نظريات لسانية عرفنية، ص: 24.
- (29). مالك بن نبي، لبيك حجّ الفقراء، ص: 29.
- (30). جورج ليكوف، النظرية المعاصرة للاستعارة، ترجمة طارق النعمان، مكتبة الإسكندرية، 2014، ص: 7.
- (31). مالك بن نبي، لبيك حجّ الفقراء، ص: 39.
- (32). نفسه، ص: 31.
- (33). نفسه، ص: 39.
- (34). الأزهر الزناد، نظريات لسانية عرفنية، ص: 153.
- (35). مالك بن نبي، لبيك حجّ الفقراء، ص: 27.
- (36). نفسه، ص: 32.



(37) . نفسه، ص: 40.

(38) . نفسه، ص: 36.

(39) . نفسه، ص: 38.

(40) . نفسه، ص: 42.

(41) . نفسه، ص: 50.

(42) . نفسه، ص: 44.

(43) . نفسه، ص: 64.

(44) . نفسه، ص: 39.

### قائمة المصادر والمراجع:

1. الأزهر الزناد، نظريات لسانية عَرَفَنِيَّة، الدار العربية ناشرون، دار محمد علي للنشر، منشورات الاختلاف، د.ت.
2. جورج ليكوف، النظرية المعاصرة للاستعارة، ترجمة طارق النعمان، مكتبة الإسكندرية، 2014.
3. حافظ إسماعيلي علوي، اللسانيات في الثقافة العربية المعاصرة، دار الكتاب الجديد المتحدة، الطبعة الأولى 2009.
4. صابر الحباشة، لسانيات الخطاب الأسلوبية والتلفظ والتداولية، دار الحوار، سورية، الطبعة الأولى 2010.
5. صابر الحباشة وآخرون، دراسات في اللسانيات العرفانية؛ الذهن واللغة والواقع، المملكة العربية السعودية، الرياض، الطبعة الأولى 1441 هـ/ 2009 م.
6. عبد السلام المسدي، اللسانيات وأسسها المعرفية، الدار التونسية للنشر/ المؤسسة الوطنية للكتاب. الجزائر، 1986.
7. مالك بن نبي، لبيك حجّ الفقراء، ترجمة زيدان خوليف، دار الفكر، دمشق، الطبعة الأولى 1430 هـ/ 2009 م .
8. مصطفى غلفان، اللسانيات العربية وأسئلة المنهج، دار "ورد" الأردنية، الطبعة الأولى 2013.
9. معجم الوجيز، مجمع اللغة العربية، القاهرة، المطابع الأميرية، 1992.